الجريمة والزكاة

للآنسة منور حافظ

الجرائم على اختلاف أنواعها مذمومة مرذولة لأنها اعتداء صارخ على حرمة المجتمع لا يبرره عرف ولا يقره قانون ولا يرضى به إلا كل خانع مستذل حاقد على الإنسانية جمعاء .

والجريمة في مبناها كلمة تمجها الأسماع وترتعد من ذكرها القلوب لأنها تصور فى ذهن الانسان معنى من معانى الوحشية فى أبشع صورها وأبعد مداها .

لا مشاحة فى أن مرتكب الجريمة أيا كانت ثقافته خارج على القانون مارق منه سواء أكان القانون وضعيا أم سماويا .

ولاشك أن مرتكب الجريمة إما أن يكون فاقد الوعى أو مريض النفس سقيم الوجدان ، وكيف لا يكون كذلك وهو يقدم على سرقة مال غيره أو هتك عرضه أو يقتل نفسا حرم الله قتلها أو يزور أو يرتشى .

والجرائم مهما كان نوعها حقد دفين كامن فى نفس مرتكبها . ولو فتشنا بين جدران السجون وتقصينا أخبار نزلائها ودوافع ارتكاب جرائمهم لظهر لنا بأقوى دليل وأسطع برهان أن الجرائم سواء كانت خلقية أم غير خلقية خاضعة لعامل واحد هو الفقر . ولست أقصد بالفقر قلة المال .ولكنى أقصد الفقر فى كل شئ . فى الأخلاق . فى الضمير . فى الوازع الدينى . ذلك لأن الجرائم يشترك فى الوقوع فيها العلماء والجهلاء والفقراء والأغنياء على حد سواء . وعلى هذا فلا دخل للعلم أو الجهل ولا للفقر أو الغنى بل هى أمراض نفسانية تصيب الجاهل والمتعلم والغنى والفقير .

ولست أرمى من وراء ذلك أن العلم لا يفيد فى دفع الجرائم والاقلال منها . ولكنى أقصد أن الكل يقع فيها ، ولكن مما لا شك فيه أن الجهلاء أكثر وقوعا واقترافا للجرائم من المتعلمين . لأن الجهل والفقر عاملان متلازمان من عوامل الاكثار للوقوع فى الجرائم خلقية كانت أم غير خلقية . ذلك لأن الفقراء يحقدون على الأغنياء ويحسدونهم على ما أصابوا من رغد العيش وهناءة الحال . ويتمنون بجدع الأنف أن يصيبهم ما أصابهم . ولو شعر الفقراء بعطف الأغنياء عليهم لارعوى كل فقير . ولما أقدم على ارتكاب الجريمة . وكيف يقدم عليها وهو يشعر بعطف الغنى واحسانه وبره . وتلك كانت حكمة الإسلام فى فرض الزكاة ، فاللص ما سرق إلا من أجل المال . والقاتل ما قتل إلا من أجل المال . والمرأة ما اضطرت الى بيع عرضها فى سوق الدعارة إلا من أجل المال . إذا فالمال هو أس الجرائم .

وليت شعرى لماذا يقول الفرنسيون حينما تقع الجريمة فتش عن المرأة ؟ ؟ ؟ إذا لتهم قالوا فتش عن المال .

إذ لو أخرج الغنى زكاة ما عنده من مال ما قتل القاتل ولا سرق السارق ولا سقطت المرأة ولقلت الجرائم. ولو نسج على منواله كل موسر عاقل لقضوا على جيش البطالة العرمرم ، ولكن سادتنا الأغنياء يعيشون فى قصورهم العالية ولياليهم الحمراء بينما يعيش الفقراء فى أكواخ سداها الجهل ولحمتها الفقر والمرض .

ونحن فى مستهل عهد جديد وكل الأمم قد شمرت عن سواعد جدها لتواجه مشكلاتها بعد الحرب. وقد ثبت بأقوى دليل أن الحكومات وحدها لاتكفى لدفع غائلة الجوع والعرى والمرض مالم يمد إليها المحسنون والأغنياء الموسرون يد المساعدة . وفى كثير من البلدان الأجنبية تقوم جمعيات كثيرة بجانب حكوماتها بالإشراف على شئون الحياة الاجتماعية لهذا نمت الحياة هناك وازدهرت، ذلك لأنهم عرفوا أن عجلة الزمان تدور بأسرع دورانها، ونحن ننظر إليهم ونمتدح أعمالهم ولا نقدم على محاكاتهم إلا فى النذر اليسير. غير أنى لا أنكر بحال أن هناك جمعية أو جمعيتان قد أدتا بعض ما عليهما قدر طاقتهما وفوق طاقتهما الكثير من الأعمال. ولكن جمعيتان أو ثلاثا أو أربعا لاتكفى بحال من الأحوال. ومن الذى يقول أن جمعية الهلال الأحمر أو مبرة محمد على تكفيان لدفع الفقر عن أمة تعدادها يقرب من العشرين مليونا . لقد قامت هاتان الجمعيتان بما هو فوق طاقتهما وكان لاشتراك بعض سيداتنا الفضليات جهدا مشكورا غير منكور . وطالما كتب الكتاب للأغنياء مرشدين وخطب لهم الخطباء واعظين وناصحين . ولكنهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

لهذا لم يبق إلا أن تسن الحكومة قانون الزكاة وتفرضه فرضا و إجبارا، وإلى هذا قد سبقتنا معظم الدول الأجنبية .

وقد يقول قائل إن فرض الزكاة إجبارا فيه معنى من معانى الاشتراكية . وقد فاته أن الدين الإسلامى يحض على ذلك ليشرك الفقراء فى أموال الأغنياء رحمة بهم وشفقة عليهم . "والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" .

وليت شعرى أى عين يجمل بها أن تستبقى فى محاجرها قطرة من الدمع فلا تريقها أمام منظر البؤساء والفقراء وهم يزرعون الطرقات جيئة وذهابا يبحثون عن لقمة عيش يسدون بها رمقهم أو مزقة من قماش يسترون بها عورتهم بينما ينثر الأغنياء الذهب على الغوانى والقنانى وعلى كماليات لاضرورة لها ولا لزوم .

وأى قلب يستطيع أن يستقر بين جنبى صاحبه ساعة من الزمان ولا يطير جزعا وهو يرى أخوه فى الإنسانية عارى الجسد خاوى الوفاض .

هذا السلوك المهذب لم أره كذلك فى الأبناء فيشبون عليه ويختفى من محيطنا هذه اللذة الحيوانية التى نكرس لها جهودنا ، والتى أصبحت غايتنا توجه أعمالنا وسلوكنا .

لقد فقدنا البطولة فى ميادين الفتح والغزو والمال والعلم فاستعضنا عنها بالبطولة فى هذا الميدان وأهون به من ميدان !

وناحية أخرى لها خطرها ولا نكاد نتنسمها فى جونا ، تلك هى رقة العواطف أو سمو الوجدان ، فالحب معناه الشهوة والصداقة لا تكون إلا لمنفعة ، والوفاء لغاية ، ومواقف اللقاء والوداع جامدة ، والتراسل بين الزوجين المفرقين لا تنبض بالحرقة والحنين ، ومحبة الوالدين واهنة ومعاملة الخدم قاسية .

فما دواعى هذه الموجة الزاحفة .

إذا كانت أخلاقنا عاداتنا فدواعى هذه المادية أننا لم نعود منذ الصغر ولم ننشأ فى جو مشبع بثراء الروح فلم نذق أو نشاهد الحب الخالص والصداقة السامية والوفاء المنزه والتعبير عن خلجات النفوس وحرارة الأكباد تعبيرا صادقا ليس فيه رياء أو تصنع ، والاخذ بيد الضعيف واليائس والمحروم .

فما أحرى الآباء والمعلمين والكتاب أن يكونوا المثل الأعلى والأسوة الحسنة فيما يسلكون أو يتحدثون أو يكتبون .

وأن يمهد الآباء الطريق لاستقلال أبنائهم الكبار ونهوضهم بالمسؤولية بأن يجعلوا لكل حجرة خاصة أو مكتبا خاصا ، وأن يعتمدوا الى الفتاة بمساعدة أمها فى الطبخ والكى والغسل والانفاق على المنزل ، والى الفتى بشراء بعض ما يلزم البيت وإصلاح ما فسد من أدواته وبهذا يعملون على نظامهم النفسانى ، وأن يمنحوهم الحرية — حرية التفكير والتصرف والاتجاه والسلوك فى حدود السلطة الأبوية التى أشرنا إليها فانى أذهب مذهب دؤلاء المربين الحديثين الذين ينزعون هذا المنزع ويدافعون عنه فى حدود الممكن لتقوية الشخصية والإفادة من التجاريب .

وإذا تهيأ الزواج للفتى فعلى الآباء أن يعملوا على إقامة العروس فى مسكن مستقل حتى لا ترى هذه العداوات والقلاقل والطلاق وبعض الزوج لحميها وتحريض زوجها عليهما فالزوج بفريزتها تعمل على السيطرة على بيت زوجها والأم ترى فى النزول عن سيادتها خدشا لكرامتها ، وتعديا على حقوقها مما يؤدى الى إتساع شقة الخلاف واستحكام العداء .

محمد مصطفى عطا

أستاذ التربية وعلم النفس فى برقة